Dirasat: Human and Social Sciences, Volume 50, No. 6, 2023

Deanship of Scientific Research

The Evolvement of Classical Arabic?: Linguistic study in Jordanian Dialects' Phenomena

Moath Haza' Alzu'bi**, Eiad Fathi Al -Osaily, Sanaa Kamel Shalan, Sumaya Suleiman al-Shawabkeh

Department of Arabic Language and Literature, School of Arts, University of Jordan, Amman, Jordan.

Received: 2/6/2022
Revised: 12/10/2022
Accepted: 7/12/2022
Published: 30/11/2023

* *Corresponding author:*
moathzoabe@yahoo.com

Citation: Alzu'bi, M. H., Al-Osaily, E. F., Shalan, S. K., & al-Shawabkeh, S. S. (2023). The Evolvement of Classical Arabic?: Linguistic study in Jordanian Dialects' Phenomena. *Dirasat: Human and Social Sciences*, *50*(6), 163–173. https://doi.org/10.35516/hum.v50i6.1292

© 2023 DSR Publishers/ The University of Jordan.

This article is an open access article distributed under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY-NC) license https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

Abstract

Objectives: This research delves into phenomena in the diverse Jordanian Arabic dialect, situated in a geographically significant area historically linked to the Roman State. Examining the roots of modern dialects, it investigates whether they are evolved forms of Classical Arabic or extensions of Ancient Arabic, reaching into broader Semitic languages.

Methods: Researchers collected samples that are common of the dialectal phenomena in the Jordanian dialect, selected specific ones to look up their origin in the principal linguistic sources, and studied each phenomenon in dependently.

Results: The study found that modern dialects are an extension of ancient ones, which are linguistic patterns coexisting with Classical Arabic, which is considered one of these dialects, thus, Classical Arabic received different attention than other dialects from its speakers, for economic, religious, and political aspects, and, therefore, dominated other dialects, and became the origin that others follow. The research also found that Ancient Arabic language had several levels, standard and colloquial, and not one level as some researchers come to think.

Conclusions: This research challenges the notion that modern dialects evolved from Classical Arabic, asserting that they coexisted with Ancient Arabic rather than being its evolved form. It contends that dialects will persist alongside Classical Arabic without posing a threat to it. Additionally, the study examines the ancient language on two levels: a high eloquent level represented by preserved poetic models, and a dialectal level evidenced by prevailing patterns in the past.

Keywords: Dialect, language, ancient, modern, classical Arabic.

اللهجات الحديثة، امتداد للقديمة؟ أم تطوّر عن الفصيحة؟ دراسة لغويّة في ظواهر من اللهجة الأردنيّة

معاذ هزاع الزعبي*، إياد فتحي العسيلي، سناء كامل شعلان، سميّة سليمان الشوابكة

قسم اللغة العربيّة وآدابها، كليّة الآداب، الجامعة الأردنيّة، عمّان، الأردنّ.

ملخّص

الأهداف: يهدف هذا البحث إلى دراسة بعض الظواهر البارزة في اللهجة الأردنيّة، بوصفها تغطّي مكانا ذا توزيع جغرافيّ كبير، وفيه ألوان متعدّدة من السكّان؛ فهو يقع على عدَدٍ من المناطق الحدوديّة، وكان تابعا للدولة الرومانيّة قديما. ويهدف إلى بيان الأصول الأولى للهجات الحديثة، بين أن تكون صورة متطوّرة عن اللغة الفصيحة، أو أن تكون امتدادا للهجات العربيّة القديمة، وصولا إلى اللهجات في اللغات الساميّة.

المنهجيّة: رصدت الدراسة نماذج من الظواهر اللهجيّة المشتركة في اللهجة الأردنيّة، واختارت منها نماذج محدّدة، بحثت عن أصولها في أمّات الكتب العربية القديمة والحديثة، ودرست كلّ ظاهرة بصورة مستقلّة.

النتائج: وصل البحث إلى أنّ اللهجات الحديثة امتدادٌ للهجات القديمة؛ فهي أنماط لغويّة قائمة جنبًا إلى جنب مع اللغة الفصيحة التي كانت واحدةً من هذه اللهجات، فلقيت عناية مختلفة عن غيرها من الناطقين بها، لأبعاد اقتصاديّة ودينيّة وسياسيّة، فظهرت على اللهجات جميعها، وصارت أصلًا، تبعه غيرها. ووصل إلى أنّ اللغة العربيّة، قديما، كانت مستويات متعدّدة، فيها الفصيح والعاميّ، وليست كلّها مستوى واحدًا كما يتبادر لبعض الباحثين.

الخلاصة: ينفي البحث كوْن اللهجات الحديثة تطوّرًا عن الفصيحة، ويبيّن أنّها ليست صورًا طارئة عليها، بل هي موجودة مع الفصيحة منذ ولادتها، ما يعني أنّها ستبقى على صورتها مدّةَ حياةِ الفصيحة، ولن تشكّل تهديدًا لها. وقد نظر البحث إلى اللغة قديمًا وَفْق مستويين؛ مستوى فصيح يمثّل اللغة العالية عند العرب، حفظتْه لنا النماذج الشعريّة التي وصلت إلينا، ومستوى لَهجيّ، تدلّ عليه الأنماط اللهجيّة السائدة قديمًا.

الكلمات الدالة: اللهجة، اللغة، القديمة، الحديثة، الفصيحة.

المقدمة

دراسة اللهجات في أيّ لغة من اللغات موضوع قديم جديد، يلازم الدراسات اللغويّة بوصفها خاضعة لقانون التطوّر الذي يصيب اللغات جميعها، فظهور ملامح جديدة في أيّ لغة، على مستوى البنية، أو على مستوى الصوت، أو على مستوى التركيب، يستدعي من القائمين على اللغة مواكبة الجديد وتمحيصه، وربّما تصنيفه، بين ما يقبله النظام اللغويّ فيسمح له بالبقاء، وبين ما يرفضه فيحكم عليه بالموت.

ولأنّ العربيّة تحتلّ مساحة واسعة على خارطة اللغات العالميّة، من حيث عدد ناطقها، والمساحات الجغرافيّة الواسعة التي يقطنونها، ومن حيث كونها لغة الدين الإسلاميّ الذي يؤمن به مئات الملايين وأزيد، فقد فرضت على لغويّيها وباحثيها، أن ينظروا، غير مرّة، في كلّ طارئ يصيب اللغة، حتّى يحافظوا عليها من عوامل الزمن، ومن الآخر، إن تقصّد هدم بنيانها. خصوصا، أنّ العربيّة ضاربةٌ في أعماق الزمن، إذا ما قورنت بغيرها من اللغات الحيّة.

واللغة المنطوقة موضوع رئيس من موضوعات علم اللغة الحديث، يدرس صوتها ودلالاتها ونحوها وصرفها، واصفا تطوّرها وقربها من الفصيحة المشتركة أو امتدادها لإحدى اللهجات القديمة.

والباحثون ينظرون إلى اللغة العربيّة وفق مستوييها؛ الفصيح والعاميّ، فيصفون الأوّل ويتفنّنون في علومه، ويواكبون كلّ جديد في علوم اللغة ليروا مكان العربيّة منه، وينظرون في المستوى الثاني، محاولين ردّه إلى الأوّل إن رأوا أسباب اتّصال بينهما، ويحكمون عليه أنّه لغة لقبيلة، إن لم يخالف أقيسة العربيّة ونظامها، فإن خالف، ينحّونه ويخطّئونه.

ودراسة اللهجات تفتح بابا واسعا من أبواب لغتنا العربيّة البحثيّة من حيث نحوها وصرفها ودلالاتها وأصواتها، وصولا إلى البحث في نقاط الالتقاء بينها وبين الفصيحة، ثمّ بيان أسباب انفصالها عن الفصيحة.

ولقد لجأنا في هذا البحث إلى اختيار ظواهر لهجيّة بعينها، وبحثنا عمّا يشبهها أو يناظرها في اللهجات قديما، علّنا نردّ الجديد إلى القديم، في محاولة لاستنتاج أسباب جعلت مستعمل اللغة، قديما وحديثا، يلجأ إليها.

والبحث ينظر في التطوّر الذي طرأ على بعض كلمات اللغة وظواهرها اللهجيّة، حتى صارت بصورتها الأخيرة، ولا يقصد إلى تفصيحها، فلسنا من دعاة تفصيح العاميّ، وإنّما غاية بحثنا الوصفُ. والجديد في هذا البحث، إضافة إلى طرح بعض الظواهر اللهجيّة الّتي لم يذكرها على هذا النحو من بحث في دراسة اللهجات، أنه بيّن أسباب انفصال هذه الظواهر اللهجيّة عن الفصيحة، وحاول تحديد أصل بعضها، إن كانت أصيلة في العربيّة، أو الإشارة إليها إن كانت وافدة من غير العربيّة.

واختار الباحثون اللهجة الأردنيّة ليأخذوا منها ظواهر لهجيّة موجودة عند قاطنيها، لخصوصيّة في المكان، إذ هو مَهْجرٌ لكثير من الناطقين بالعربيّة، ولكثافة السكّان القاطنين لمساحة جغرافيّة صغيرة نسبيّا، ما يجعل القاعدة الممثّلة للدراسة كبيرة إذا ما قورنت بغيرها، إضافة إلى أنّ الظواهر اللهجيّة الموجودة في الأردنّ هي نفسها الموجودة في الجنوب السوريّ، ما يقوّي الزعم القائل بأنّ الفواصل الحدوديّة لا تؤثر في المستويات اللهجيّة الخاضعة للمتغيّرات المتشابهة.

مستويات اللغة قديما

مشكلة اللغة واللهجة هي مشكلة كل قوم مزدوجي اللغة؛ ففي المواقف الحياتيّة الاعتياديّة نتحاور بلغة بسيطة لا نخضعها لقوانين تضبطها، ولا نُعنى بالخطأ والصواب فيها إلى حدّ بعيد، إنّما يعنينا منها أن تبلّغنا حاجتنا التواصليّة مع الآخر. ونحن، بحسب الآخر، متفاوتون في مستوياتنا اللغويّة، أو تنوّعاتنا اللهجيّة، فإنّنا نظهر في خطاباتنا الرسميّة ملتزمين بأدقّ قوانين اللغة التي اتّفق أنّها المعايير الضابطة للغة المشتركة.

وفي لغتنا العربيّة ثمّة مستوى خاصّ أطلق عليه قدماؤنا المستوى الفصيح، وهو يمثّل اللغة العالية المشتركة التي ينظم الشعراء بها قصائدهم، وينسج عليها الخطباء، ومن هم في طبقتهم، وأطلقوا على الخروج عن هذا المستوى اصطلاح "اللغة"؛ أي لغة القبيلة، أو "اللحن"، ما نطلق عليه اليوم اللهجة. فما اللهجة في تصوّرنا المعاصر إلا انحراف عن الفصيحة التي تمثّلها لغة قريش أو ما شاكلها.

وقد ساعد على الاهتمام بالمستوى الفصيح، الدينُ والقوميّة بالدرجة الأولى، وساعد على تعدّد اللهجات البيئة الجغرافيّة التي تعدُّ مؤثّرا رئيسا في أيّ لغة؛ فاتّساعها يقتضي بُعْدَ الأطراف عن المركز، ما ينشأ عنه مستويات متعدّدة، بعضها يقرُب من الأصل وبعضها يبعُد، والزمن يكْفُلُ تقريب اللهجة من اللغة أو استقلالها عنها.

وفي تراثنا ما يدلّ على الوعي بوجود مستويات لغويّة متعدّدة عند العرب، فقد أُثِرَ عن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه أنّه قال زمنَ تدوين القرآن: "لا يُمْلِيَنَّ فِي مَصاحِفِنا إِلّا غِلمانُ قريش وثَقيف، وقال عثمان رضي الله عنه: "اجعلوا المُمليَ من هُذَيل، والكاتبَ من ثقيف"،(ابن فارس، 1997م: 32)، فهاتان العبارتان تشيران إلى وعيٍ كبير بأنّ الفصاحة محصورة في قبائل بعينها، ما يدلّ على وجود مستوى آخر، على الأقلّ، دون اللغة العالية عند العرب. وقد عبّر الزجّاجيّ عن ذلك بقوله: "ليس كلُّ العرب يعرفون اللغة كلّها، غريبها، وواضحها، ومستعملها، وشاذّها، بل هم في ذلك طبقاتٌ

يتفاضلون فيها"،(الزجاجيّ، 1986: 92).

ونشير، أيضا، إلى صحيفة الفارابي التي بيّن فيها هذه المستويات المتعدّدة، وأظهرَ معياريّة النحاة، وصرامة منهجهم في الأخذ والردّ، والتوسيع والتضييق، فلا تؤخذ اللغة إلا من قبائل معلومة لم تخالط غير العرب، وأشار إلى أنّ أعلى مراتب الفصاحة هي في لغة قريش؛ "فقد كانت أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعا وأبينها إبانة عمّا في النفس"،(السيوطيّ، 1998م، 167/1).

والبصريّون أنفسهم، وإن كانوا متشدّدين في معياريّتهم، صارمين في أحكامهم، نجدهم لا ينكرون الشاذّ؛ إنّما يُخرجونه من أقيستهم حسْبُ، إيمانا منهم أنّه يمثّل مستوى لغويّا عند مستعمله.

وقد نَقلَ لنا المبرّد ما يثبت وجود مستويين للغة؛ فصيح ولهجيّ، يقول: "وحدّثني من لا أحصي من أصحابنا عن الأصمعي عن شعبة عن قتادة، قال: قال معاوية يومًا: من أفصح الناس؟ فقام رجل من السماط فقال: قوم تباعدوا عن فراتية العراق، وتيامنوا عن كشكشة تميم، وتياسروا عن كسكسة بكر، ليس فيهم غمغمة قضاعة، ولا طمطمانية حمير. فقال له معاوية: من أولئك؟ فقال: قومي يا أمير المؤمنين، فقال له معاوية: من أنت؟ قال: أنا رجل من جِرم. قال الأصمعي: وجرم من فصحاء الناس"، (المبرد، 1997: 2/ 165).

ويقول الفرّاء: "إنّ طباع أهل البدو الإعراب، وطباع أهل الحضر اللحن"، (الزبيدي، د.ت: 131)، وفي هذه القالة نرى الفرّاء يصنّف اللغة إلى غير مستوى، بين فصيح ودونه، ويبدو من عبارته أنّ اللحن هو الخروج عن الفصيحة بكلّ مستوياتها، لا المستوى النحويّ وحده.

وقد وصف تمام حسان اللحن في تصوّر القدماء بأنّه أيّ مستوى لهجيّ دون الفصيحة، لا الخطأ في اللغة، يقول: "فأكبر الظنّ أنّ هذا الذي سمّوه لحنًا كان يصدق على أخطاء صوتية؛ كالذي يشير إليه مغزى تسمية اللغة العربية الفصحى "لغة الضاد"،.. كما كان يصدق على الخطأ الصرفي الذي يتمثّل في تحريف بنية الصيغة أو في الإلحاق أو الزيادة، وعلى الخطأ النحويّ الذي كان يتعدّى مجال العلامة الإعرابيّة أحيانًا إلى مجالات الرتبة والمطابقة وغيرهما"(حسان، 2006م: 12).

على أنّ ثمّة مشتركات كثيرة بين هذين المستويين لا يد للتطوّر فيها، فاللغة الآن، وقديما، تفرض على الجماعة الناطقة بها نظاما عامّا يشترك فيه الناطقون بها من مثل النظام الجمليّ، والروابط الإشاريّة والموصولة، والضمائر، ودلالات كثير من الألفاظ، وحروف المعنى، وغيرها الكثير ممّا لو خرج عنها مستعمل اللغة، لانقطعت وظيفة اللغة التواصليّة، ولوصف بأنّه خطأ، ولا يمكن تأدية المعنى المراد به.

وقد ساعدنا على حفظ هذه المستويات اللهجيّة المنهج الصارم الذي اتّبعه المعياريّون عند التقعيد أو التدوين؛ فهم لا يقعّدون إلا وفق أسس مضبوطة توافق ما حدّدوه في أصولهم، ما دعاهم أن يرصدوا أيّ خروج عن القاعدة التي وضعوها بهدف تخريجه أو تخطيئه. خصوصا عندما نظروا في قراءات القرآن؛ متواترها وشاذّها، ووجدوا فيها ما يخالف أقيستهم، فصاروا يخرّجونها على لهجات عربيّة تقلّ درجة عن المستوى الفصيح. وقد ظهر في فترة مبكّرة بعض المؤلّفات التي جمعت كثيرا من لغات القرآن، مثل: "كتاب فيه لغات القرآن" للفراء (207هـ)، و"لغات القبائل الواردة في القرآن" لابن سلّام (224هـ).

وقد حفظ لنا المعجميّون جانبا من هذه اللهجات، على سبيل بيان اللغات في المفردة الواحدة أو في مرادفاتها، أو في أداءاتها الصوتيّة ونحوٍ من ذلك.

العلاقة بين اللهجات القديمة والحديثة

اللغةٌ، بوصفها نظاما اجتماعيًّا، خاضعةٌ لا محالةَ لناموس التطوّر الذي يصيب كلّ النُظُم الحيّة، بفعل تعاقب الزمن، وبسبب ما يصيب المكان من توسّع واختلاط.

والتطوّر الذي أصاب العربيّة ليس مقصورًا على المستويات اللهجيّة حسبُ، إنّما ألجأ العربيّة، كغيرها، إلى تطويع كثير من الألفاظ الدخيلة عليها، استجابةً للتطوّر الحضاريّ الذي وصل إليه العرب إبّان الفتوحات الإسلاميّة، تحديدا على مستوى دلالات الألفاظ.

وسنّة التطوّر التي تصيب اللغات لا يدَ لأحدٍ على إيقافها أو التأثير فيها، فليس لنا أنْ ننكر أنّ عوامل عديدة تؤثّر في الميل عن اللغة الرئيسة، منها: الجغرافيّ والزمنيّ، ومنها الحاجة إلى مواكبة التطوّر. إضافة إلى كونها الأداة الناقلة للدين إلى شعوب ذات لسَنٍ متعدّدة. ولو لم يكن التطوّر لازما للغة على كلّ حال، لما وجدنا العرب يقعّدون اللغة العربيّة، ويدعون العرب إلى تعلّمها، بعد أن كانوا يكتسبونها سليقةً.

ومن أبرز الأسباب التي تدفع اللغات نحو التطوّر، العامل الدينيّ، فالعربيّة لغة دين جديد انتشر في أماكن عديدة، لغتها غير العربيّة، مثل الشام والعراق والأندلس والشمال الأفريقيّ وغيرها. ومعلوم أنّ لغة الدين هي لغة العبادة، ولا تصلح بعض العبادات في الإسلام إلا باللغة العربيّة، ما دفع الداخلين في الدين الجديد إلى تعلّم لغته. ومع مرور الزمن، بدأت مظاهر التطوّر تشوب ألسنة الجدد في الإسلام والعربيّة؛ فهم لا يستطيعون تعلّم أصوات العربيّة بسهولة، ولا يستطيعون أن يدركوا جوانبها الإعرابيّة، وكثرة مرادفاتها، إلّا بعد زمن طويل، فيؤثّر هذا في الأداءات النطقيّة على الأقلّ، وفي ولادة دلالات جديدة في الألفاظ.

ومن العوامل التي تدفع اللغة إلى التطوّر العامل السياسيّ(السامرّائي، 1981م: 30-31)، فالانفصال السياسيّ يصحبه بالضرورة انفصال

اجتماعيّ ثقافيّ، واللغة هي أداة التواصل الاجتماعيّ، والمرآة الناقلة لثقافة الآخر، وعلى مرّ التاريخ، يفرض القويّ لغته، ويدير عجلة الآخر حسبما يشاء، فالناظر في العصر الحديث مثلا، يرى أنّ الفرنسيّة صارت لغة التواصل والحضارة في كثير من البلاد الأفريقيّة، حتّى صار أبناء هذه البلاد يتقرّبون من صنّاع القرار السياسيّ بمدى تمكّنهم من اللغة الفرنسيّة، وقد شهدت الفرنسيّة تطوّرا سريعا على ألسنة الأفارقة الناطقين بها.

واللهجات العربيّة سواء كانت تطوّرا عن الفصيحة، أم أنماطا قائمة مثل الفصيحة، تدعونا إلى العودة قليلا إلى أصل العربيّة نفسها، بوصفها شقيقة لمجموعة من اللغات المنحدرة من اللغة الساميّة كما يتصوّر المحدثون.

والدراسات في تحديد الأصل الأول للساميّات لا تقدّم لنا إلا نظريّات، ولعلّ من الصعوبة بمكان أن نحدّد اللغة الأمّ الّتي تنحدر منها الساميّات؛ للفترة الزمنيّة الطويلة التي تفصلنا عنها، لكن، ما يقتضيه منطق اللغة، أنّ الفروع، قبل افتراقها، كانت تحت أصل واحد، "إلّا أنّ من العسير جدًّا تعيين ذاك الأصل، وتحديد هذه الوحدة؛ لأنّ المهد الأوّل للساميّين ما يزال غامضًا مجهولًا" (الصالح، 1960م، 48)، ولكن، يكفينا ما بين أيدينا من ظواهر لغويّة ساميّة تقرّبنا من تصوّر الأصل الأوّل الذي تطوّرت عنه.

والإجابة عن سؤال الأسبق بين اللهجات واللغة تقودنا بالضرورة إلى معرفة ما إذا كانت اللهجات متطوّرة عن الفصيحة أم امتدادا لظواهر لهجيّة سابقة، ولعلّ جواب العقل يقودنا إلى أنّ قانون التطوّر اللغويّ، في أيّ لغة كانت، يخبرنا أن اللهجات أسبق من اللغة؛ لأنّ الكلّ يتكوّن من أجزاء، وليس للكلّ أن يوجَد على صورته مرّة واحدة، دون أن يخضع لمراحل سابقة. وقياسا على ذلك، كيف للعربيّة الفصيحة أن تصل إلينا بصورتها الأدبيّة العالية التي نعرف، دون أن تكون مرّت بمراحل طويلة من التطوّر أنضجتْها، حتى استقرّت على حالها، ووصلت إلى ذروتها.

وفي عربيّتنا الفصيحة، في صورتها التي نعرف، كانت قريش تنتقي منها ما شاع عند العرب، ما جعل بعض المختصّين يصفون لغة قريش بأنّها توفيقيّة من لهجات العرب جميعها. نقل ابن فارس في الصاحبيّ عن إسماعيل بن أبي عبيد قوله: "أجمَعَ علماؤنا بكلام العرب، والرُّواةُ لأشعارهم، والعلماءُ بلُغاتهم ومَحالّهم أنّ قُرَيشًا أفصحُ العرب ألْسنةً وأصْفاهم لغةً"(ابن فارس، 1997م: 28)، ولظروف اقتصاديّة ودينيّة، صارت لهجة قريش أفصح اللهجات وأعلاها، وارتدّت غيرها إليها، فقد كانت "قريش، مع فصاحتها وحُسن لغاتها ورِقَّة ألسنتها، إذا أتتهُم الوُفود من العرب، تخيّروا من كلامهم وأشعارهم أحسنَ لغاتهم وأصفى كلامهم، فاجتمع مَا تخيّروا من تِلْكَ اللغات إِلَى نَحائرهم وسَلائقهم الَّتي طُبعوا عَلَيْها، فصاروا بذلك أفصح العرب"(ابن فارس، 1997م: 28)، وما يدعم هذا الرأي، نقلُ الأزهريّ عن قتادة قوله: "كَانَت قُرَيْش تجتبي، أَي تخْتَار، أفضل لُغَات الْعَرَب، حَتَّى صَار أفضل لغاتها لُغَة لَهَا فَنزل الْقُرْآن بهَا"(الأزهريّ، 2001م: 2/ 222).

وقد صادف ذلك أنّ القرآن نزل بهذه اللغة، وكان على المسلمين من العرب أن يحفظوا نصّهم، وأن يعلّموه غيرهم، ما دعاهم إلى وضع ضوابط شديدة حول لغة هذا النصّ، أُطْلِقَ عليها بعدُ: القواعد النحويّة، وأطلق على الخروج عنها: لغة، إن قلّت شواهدها، أو لحن، إن خالفها وعدمت شواهده. وإذًا، ظهرت لهجة قريش على لهجات العرب جميعها، وحملت أرفع سماتها الخطابيّة، وصارت بعدُ لغة الدين والأدب عند العرب.

فالظواهر اللهجيّة، أو لِنقل، مستويات اللغة، وتعدّد صورها، موجودة أصلا في العربيّة المنتشرة في مناطق جغرافيّة مترامية، وقد كانت آخذة بالتغيّر لولا نزول القرآن، فثبتت، حتى تبقى في المستوى الذي يفهم من خلاله هذا النصّ الّذي إنْ تطوّر إلى مستويات أخرى صعُب فهمُه، ما يشكّل خطرا يصعب تصويبه، خصوصا أنّ المساحة الّتي يغطيها ناطقو العربيّة واسعة، ما يؤدّي إلى تغيّر اللغة، ."فالعامل الجغرافيّ وتنوّعه أوّل مسألة لحظها علم اللغة في اختلاف اللهجات واللغات"(دي سوسير، 1985م: 214).

ولنا أن نسأل: لمَ بقيتْ هذه المستويات اللهْجيّة على حالها حتى أيّامنا هذه دون أن تستوعبها العربيّة الفصيحة المشتركة، وتُجري عليها قوانينها؟

وإجابة السؤال تكشف الطبيعة الخاصّة الّتي تتّسم بها العربيّة؛ فقد أقيم بناؤها في فترة محدّدة من الزمن، وأخذت من قبائل معلومة، ووضع حولها كثير من المحاذير، فكانت حصنا يمنع أيّ لهجة مخالفة من الدخول فيها. والعربيّة بهذا التصوّر لا ينطبق عليها ما قاله فندريس: "إذا اتّفق لبعض العناصر المحلّيّة أن تدلف إلى اللغة المشتركة، فليس معنى هذا أنّنا نواجه بقايا لهجيّة أو أمام لهجة جديدة في سبيل التكوين، بل نواجه اللغة المشتركة في مظهر محليّ"(فندريس، 1950م: 336)، فللعربيّة خصوصيّة جعلتها باقية بصورتها الأولى حتى يومنا هذا. وحتى نكون منصفين، نقول: إنّ العربية تأثّرت في اللغات المجاورة لها، أو فيمن تعلّمها من الناطقين بغيرها، تحديدا أيّام الفتوحات الإسلاميّة، على أنّ هذا التأثّر لم يشمل قواعدها التي تنتظمها، إنّما شمل بعض أصواتها، ودلالات بعض ألفاظها، وبعضا من تراكيبها. على أنّ القواعد التي أحاطت العربيّة ضيّقت الفجوة بين الفصيحة ولهجاتها؛ فقد أضعفت تطوّرها إلى أبعد غاية.

فالفصيحة كانت مستوى لهجيًا من لهجات عربيّة عديدة، اعتني بها كثيرا من الناطقين بها لعدد من الأسباب، وأقيمت القواعد وَفقها، فصارت بعدُ معيارًا يقاس عليها، وصنّف ما يخالفها على وفق درجة المخالفة، بين ما حفظته العربيّة ومنعت القياس عليه، وبين ما خطّأته وأخرجتْه من كلامها.

أمثلة تطبيقيّة من الظواهر اللهجيّة في الأردنّ:

تحدّثنا في هذا الباب من البحث حول أبرز الظواهر اللهجيّة الموجودة في اللهجة الأردنيّة الّتي لها ارتداد إلى مستويات لغويّة قديمة، في محاولة للربط بين هذه المستويات؛ الحديثة والقديمة، مع ما ورد من إشارات تردّها إلى اللغات الساميّة. ولم نلجأ إلى رصد الألفاظ المفردة؛ لكثرتها، وعدم تماسّها مع سؤال البحث، واخترنا أربعا من هذه الظواهر، علما أنّ هذه الظواهر اللهجيّة ليست محصورة في لهجة واحدة؛ لأنّ الناطقين باللهجة الأولى قديما، ضربوا في غير مكان في الأرض، ونقلوا لهجاتهم، أو ما بقي منها، إليه.

المطابقة بين الفعل والفاعل: (لغة أكلوني البراغيث)

يتطابق الفعل مع فاعله في اللهجة الأردنيّة كثيرا، فيقولون في محكيّاتهم: لعبوا الأولاد، كتبوا الطلاب، ذهبن البنات، دخلن الطالبات. ففي كلٍّ من الأفعال السابقة ضمير يحيل إلى الفاعل، هو الفاعل نفسه، وقد ورد الفاعل ظاهرا في كلّ جملة من الجمل السابقة.

أمّا في المستوى الفصيح، فالفعل يرد مجرّدا من علامات التثنية والجمع إن كان فاعله ظاهرا، فنقول: أكل الولد، أكل الولدان، أكل الأولاد. ولا يلحق الفعل ضمير تثنية أو جمع؛ لأنّ علامتي التثنية والجمع ظهرتا في الفاعل على صورة علامتي إعراب؛ مثنّى كان أو جمعا.

لكن، ورد عن بعض العرب أنّهم كانوا يُسندون الفعل الظاهر فاعله إلى ضمير تثنية أو ضمير جمع، يقول سيبويه: "من العرب من يقول: ضربوني قومُك، وضربني أخواك، فشبّهوا هذا بالتاء التي يُظهرونها في: قالت فُلانة، وكأنّهم أرادوا أن يجعلوا للجمع علامة، كما جعلوا للمؤنث، وهي قليلة، قال الشاعر: وهو الفرزدق:

وَلَكِنْ دِيافِيٌّ أَبوهُ وَأُمُّهُ بِحَوْرانَ يَعْصِرنَ السّليطَ أَقارِبُهْ"(سيبويه، 1988م: 40/2)

وهذه اللغة ذكرها النحاة كثيرا في مصنّفاتهم تحت مسمّى لغة: "أكلوني البراغيث"، واحتجّوا لها بجملة من الشواهد القرآنيّة والشعريّة، من مثل:

- قوله تعالى: "وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا" (سورة الأنبياء 3).
- وقوله تعالى: " ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ" (سورة المائدة 71).
- وروي عن النبيّ عليه الصلاة والسلام أنّه قال: "يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار"(البخاريّ، د.ت: 1/ 155).
- وقول أميّة بن أبي الصلت(ديوان أميّة بن أبي الصلت، 1934م: 48):

يَلومونَني في اشْتِراءِ النخيـ ـلِ أهْلي، فَكُلُّهمْ يَعْذِلُ

- وقول عبيد الله بن قيس الرقيّات(ديوان عبيد الله بن قيس الرقيّات، د.ت: 196):

تَوَلّى قِتالَ المارِقينَ بِنَفْسِهِ وَقَدْ أَسْلَماهُ مُبْعَدٌ وَحَميمُ

وواضح من عبارة سيبويه السابقة أنّها لغة قليل من العرب، سواء منع النحاة القياس عليها أم قبلوه، وما يعنينا هنا أنّها تمثّل مستوى لهجيّا عند العرب، وقد نسبه بعض النحاة إلى لغة طيّئ أو أزد شنوءة أو بلحارث بن كعب(ابن هشام، 1985م: 478).

أمّا على سبيل الإعراب، فقد أشار سيبويه في عبارته السابقة إلى أنّ الألف والواو اللاحقتين للفعل هما علامتا تثنية وجمع كتاء التأنيث اللاحقة للفعل، وهي على هذا المذهب حروف لا أسماء، والأسماء الظاهرة بعدها هي الفاعل.

وقد ذكر وجها آخر في إعرابها، وهو أن تكون بدلا من الضمير قبلها، يقول:"وأمّا قوله جلّ ثناؤه: "وأسَرّوا النجوى الذين ظلموا"، فإنّما يجيء على البدل، وكأنّه قال: انطلقوا، فقيل له: مَن؟ فقال: بنو فلان. فقوله جلّ وعزّ: "وأسَرّوا النجوى الذين ظلموا على هذا فيما زعم يونس"(سيبويه، 1988م، 2/ 41). ولها تخريج آخر، وهو أن يكون الاسم الظاهر مبتدًا، وهو، وإن تأخّر لفظه، فحقّه التقديم رتبة، فهو المسند إليه، والضمير المتقدّم فاعل، يحيل إليه.

وقد أشار رمضان عبد التوّاب إلى أنّ لغة "أكلوني البراغيث" قد تكون أسبق من قاعدة إفراد الفعل إن كان فاعله مثنّى أو مجموعا، وهي موجودة في الساميّات الأخرى، يقول: "غير أنّ مقارنة اللغات الساميّة، أخوات العربية، تؤدّي إلى معرفة أنّ الأصل في تلك اللغات، أن يلحق الفعل علامة التثنية والجمع للفاعل المثنّى والمجموع، كما تلحقه علامة التأنيث عندما يكون الفاعل مؤنثا سواء بسواء"(عبد التوّاب، 1982م، 69).

وآية القول في هذه الظاهرة اللهجيّة، أنّها كانت تمثّل مستوى لهجيّا موجودا في لهجاتنا القديمة، ولها عدد من الشواهد عند لغويّينا، لكنّها تُحفظ ولا يقاس عليها؛ لأنّ النمط في الفصيحة أن يطابق الفاعل فاعله في الإفراد حسبُ، أمّا إن كان الفاعل مثنّى أو جمعا، فيُفْرد معه الفعل.

كسر حرف المضارعة: (تلتلة بهراء)

وهي من الظواهر اللهجيّة المنتشرة في الأردنّ بكثرة، فيقولون في المضارع مفتوح العين: بِلعب، نِسمع، تِجمع، ولا بقايا في هذه اللهجة لكسر همزة المضارع. أمّا المضارع مضموم العين، فيضمّون حرف المضارعة فيه اتباعا لعين مضارعه، من مثل: تُحرُس، يُكتُب، نُسجُد.

وذكر ابن منظور أنّها: "لغة قيس وتميم وأسد وربيعة وعامّة العرب، وأمّا أهل الحجاز وقوم من أعجاز هوازن وأزد السراة وبعض هذيل فيقولون: تَعلم

(بفتح حرف المضارعة)، والقرآن عليها، قال: وزعم الأخفش أنّ كلّ من ورد علينا من الأعراب لم يقل إلا تِعلم، بالكسر."(ابن منظور، 2003م، 15/ 470).

ونسبها ابن جنّي في الخصائص إلى قبيلة بهراء(ابن جنّي، د.ت: 2/ 13)، وظلّت هذه النسبة لصيقة بها عند اللغويّين.

وقرئ عليها من الشاذّ(الرازي، 1420هـ: 26/ 297): "ألم أعْهَدْ إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان" (سورة يس: 60)، بكسر همزة المضارعة في أعهد على هذه اللغة.

وقرئ من الشاذّ أيضا قوله تعالى: (ابن جنّيّ، 1969م: 1/ 330): *"وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ" (سورة هود: 113)، بكسر تاء المضارعة في تِركنوا، والتاء في فتِمسّكم.*

وروي أنّ أعرابيّا تعلّق بأستار الكعبة وقال: "ربِّ اغفر وارحم وتجاوز عمّا تِعلم"(الزبيدي، 2001م، 28/ 140) (بكسر التاء).

وروي على هذه الظاهرة رجز لحكيم بن معيّة الربعي (البغداديّ، 1997م، 5/ 62) يقول فيه:

لَوْ قُلتُ ما في قُومِها لَمْ تِيثمِ يفضُلُها في حَسَبٍ وميسمِ

فالفعل: تيثم، مضارع مكسور التاء، وسُهّلَتْ همزتُهُ ياء، وهو في الفصيحة: تأثم.

واللافت أنّ سيبويه عدّ كسر حروف المضارعة لغة جميع العرب إلا أهل الحجاز، إلّا إن كان المضارع مكسور العين، فيفتح حرف المضارعة من مثل: تضرب (سيبويه، 1988م، 4/ 110).

وآثار هذه اللهجة موجودة في العربيّة الفصيحة في الفعل: إخال، يقول أبو ذؤيب الهذلي (ديوان أبي ذؤيب الهذليّ، 2003م: 142):

فَغَبَرْتُ بَعْدَهُمُ بِعَيْشٍ ناصِبٍ وَإِخالُ أنّي لاحقٌ مُسْتَتْبَعُ

ولزهير بن أبي سلمى (ديوان زهير بن أبي سلمى، د.ت: 15):

وَما أَدْري وَسَوْفَ إِخالُ أَدْري أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِساءُ

وذكر ابن منظور أنّ الأفصح في المضارع "إخال" أن يكون بالكسر، وهو الأكثر استعمالا، رغم أنّ القياس الفتح(ابن منظور، 2003م: 11/ 272).

وذكر رمضان عبد التوّاب أنّ كسر أحرف المضارعة ظاهرة ساميّة قديمة توجد في العبريّة والسريانيّة والحبشية، والفتح في آخر المضارع حادث في العربيّة القديمة بدليل عدم وجوده في اللغات الساميّة الأخرى، وبدليل ما بقي من الكسر في بعض اللهجات العربيّة القديمة"(عبد التوّاب، 1999: 125)، وعدّ إبراهيم أنيس كسر حرف المضارعة شاملا معظم اللغات الساميّة (أنيس، 1965م: 140).

وأشار بروكلمان إلى أنّ "الكسرة (i) تدخل في تلك المقاطع، بدلا من الفتحة (a)، في الأفعال اللازمة مفتوحة العين، بسبب ما يسمّى التحويل الحركي، غير أنّ الفتحة قد عادت للظهور مطلقا في العربيّة ولا تظهر فيها الكسرة إلا في اللهجات"(بروكلمان، د.ت: 116).

وخلاصة القول، وجدنا أنّ كسر حروف المضارع (تلتلة بهراء) مظهر لهجيّ له آثاره في اللهجات العربيّة القديمة، وليس طارئا على اللهجات الحديثة، إضافة إلى وجوده في الساميّات القديمة، ما يدعم نتيجة بحثنا من أنّ اللهجات الحديثة امتداد للقديمة وليست تطوّرا عن الفصيحة.

صوت الـ تش (الكشكشة)

يكثر هذا الصوت في اللهجة الأردنيّة في تعبيرات سكّانه اليوميّة، ولا يوجد نظام يضبطه في هذه اللهجة، فقد يظهر في كاف الخطاب للمؤنث، مثل: كتابتش، ابنتش، وقد يظهر في بداية الكلمة، مثل: تشيف حالك؟، تشلب، ولعلّ أبرز ما يمثّل هذا الصوت في اللغات الأخرى الآن، هو (ch)، في الإنجليزيّة. ولا نظير لهذا الصوت في الرموز الكتابيّة العربيّة، ولعلّ هذا سبب اللغَط في تصوّر هذا الصوت، ونسبته إلى عدد من الظواهر اللهجيّة؛ هي: الكشكشة، والكسكسة، والشنشنة، ولعلّ ثمة خلطا بين هذه الظواهر اللهجيّة لا يسعنا بيانه هنا، لكنّنا آثرنا أن نستخدم اصطلاح الكشكشة، لأنّ صوت الـ تش، قريب المخرج من صوت الشين.

وقد جعل سيبويه الكشكشة في تميم وأسد، وتكون في كاف المؤنث وحدها، حالَ الوقف، يقول: "فأمّا ناسٌ كثيرٌ من تميم، وناسٌ من أسدٍ، فإنّهم يجعلون مكان الكاف للمؤنث الشين. وذلك أنّهم أرادوا البيان في الوقف؛ لأنّها ساكنة في الوقف، فأرادوا أن يفصلوا بين المذكر والمؤنّث"(سيبويه، 1988م: 4/ 199).

وقد عزا المبرد هذه الظاهرة النطقيّة إلى قبيلة عمرو بن تميم في قوله: "فإنّ بني عمرو بن تميم إذا ذكرت كاف المؤنث، فوقفت عليها، أبدلت منها شيئًا، لقُرب الشين من الكاف في المخرج، وأنّها مهموسة مثلها، فأرادوا البيان في الوقف، لأنّ في الشين تفشّيًا، فيقولون للمرأة: جعل الله لك البركة في دارش"(المبرّد، 1997م: 2/ 166).

وقد قيّد اللغويّون هذه الظاهرة في كاف المؤنث وحدها، في الوقف، ولعلّ السبب في ذلك عدم ورود شواهد أخرى تبيّنها.

أمّا ثعلب فقد جعلها في الكاف المكسورة مطلقا، لا كاف المؤنّث وحدها، ولم يقرنْها بحال الوقف، وإنما جعلها على إطلاقها، يقول في مجالسه: "وربّما جعلوا بعد الكاف الشين والسين، يقولون: إنكش وإنكس. قال: وهذه الكشكشة والكسكسة المشهورة، وهي الكاف المكسورة لا غير، يفعلون هذا

توكيدًا لكسر الكاف بالشين والسين"(ثعلب، 1960م، 116-117).

ومن أمثلتها من منطوق العرب، القراءة الشاذّة(الثعالبيّ، 2002م: 90): قد جعل ربّش تحتش سريّا، في قوله تعالى: "قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا" (سورة مريم: 24).

وقراءة: إنّ الله اصطفاش وطهرش، في قوله تعالى: "إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ" (سورة آل عمران: 42).

وقد تبدل في الوصل كقول المجنون (ديوان قيس من الملوّح، 1999م: 45)و(ابن دريد، 1987م: 1/ 43)

فَعَيْناشِ عَيْناها وَجيدُشِ جيدُها سِوى عَنَّ عَظْمَ الساقِ مِنْشِ دَقيقُ

أمّا ابن جنّيّ فجعلها في كاف المؤنث وحدها، حالَ الوقف، وقد وردت في قول راجز في غير كاف المؤنّث، فقاسها بسبب كسرها على كاف المؤنث، يقول الراجز(ابن جنّيّ، د.ت: 1/ 188):

عَلَيَّ فِيمَا أَبْتَغِي أَبْغِيشِ ... بَيْضاء تُرْضِيني وَلَا تُرْضِيشِ

وتَطَّبِي وُدَّ بَنِي أَبِيشِ ... إذا دَنَوْتِ جَعَلَتْ تُنْئِيشِ

وإِنْ نَأَيْتِ جَعَلَتْ تُدْنيشِ ... وإِنْ تَكَلَّمْتِ حَثَتْ فِي فِيشِ

حَتَّى تَنِقّي كنَقِيقِ الدِّيشِ

ولكن، هل الكشكشة أو الكسكسة هي نفسها صوت الـ (ch) الذي نعرفه في عاميّتنا اليوم؟ أم أنّ الصوت الحديث تطوّر عن القديم؟

ذكر ابن دريد وصفا دقيقا في تحديد هذا الصوت مختلف عن الأقوال السابقة، يقول: "وَإِذا اضْطرّ هذا الَّذي هَذِه لغته قالَ: جيدش وغلامش، بَين الْجيم والشين، لم يتهيأ لَهُ أَن يفرده"(ابن دريد، 1987: 1/ 43). ولعلّ هذا الوصف هو نفسه ما ننطقه اليوم، أو على الأقل، يقترب منه كثيرا، ما يجعلنا موقنين بأنّ علّة عدم وصفه عند القدماء، عدم وجود مماثلات كتابيّة لهذا الصوت في عربيّتنا.

وقد شبّه رمضان عبد التواب ما حدث لصوت الكاف في ظاهرة الكشكشة بما حدث للجيم المعطّشة بعد تطوّرها عن القاهريّة(عبد التوّاب، 1999م: 146-147)؛ فالصوت الحديث للكاف أصبح مزيجا من صوتي التاء والشين، وليس شينا مضافا للكاف، فعربيّتنا في قوانينها الصوتيّة لا تعرف إضافة صوت بعد صوت، إنّما تعرف قانون الإبدال الصوتي، وذلك بأن يحُلّ صوت محلّ صوت، حتّى وإنْ كان ممزوجا.

فالكشكشة هي صوت الـ تش، وهي مظهر لهجيّ موجود في لهجاتنا الحديثة، وله امتداد في اللهجات العربيّة القديمة، وظهوره في اللغات الحيّة الآن في غير العربيّة، يدلّ أنّه ظاهرة صوتيّة موجودة في العربيّة وفي غيرها من اللغات.

الفعل أنطى: (الاستنطاء)

يشيع في اللهجة الأردنيّة استعمال الفعل أعطى، بالنون بدلا من العين، فيقال: أنطيتك، أنطاه، أنطها.

وقد ذكر اللغويّون هذا الاستعمال كثيرا تحت مسمّى (الاستنطاء)، وشاع في اللهجات العربيّة قديما، "في لغة سعد بن بكر، وهذيل، والأزد، وقيس، والأنصار"(السيوطي، 1998م: 1/ 176)، وهو أن "تجعل العين الساكنة نونا إذا جاورت الطاء كأنْطي في أعْطِي"(السيوطي، 1998م: 1/ 176).

وقد قرئ في الشاذّ(القرطبي، 1964م: 20/ 216): إنّا أنطيناك الكوثر، في قوله تعالى: "إنّا أعطيناكَ الكوثر"، (سورة الكوثر: 1)، ويروى أنّ النبي عليه الصلاة والسلام قال: "اليَدُ الْمُنْطِيَةُ خيرٌ مِنَ اليدِ السُّفْلَى"(ابن الأثير، 1979م: 5/ 76).

وروي أن النبيَّ عليه الصلاة والسلام خاطب بعض القبائل بلهجاتها، من ذلك رسالته إلى وائل بن حُجْر الحضرميّ التي جاء فيها: "مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى الأَقْيَالِ الْعَبَاهِلَةِ، وَالأَرْوَاعِ الْمَشَابِيبِ مِنْ أَهْلِ حَضْرَمَوْتٍ بِإِقَامِ الصَّلاةِ الْمَفْرُوضَةِ، وَأَدَاءِ الزَّكَاةِ الْمَعْلُومَةِ عندَ مَحِلِّهَا، فِي التَّيعَةِ شاةٌ، لا مُقَوَّرَةُ الأَلْياطِ وَلا ضِناكٌ، وَأَنْطوا الثَّبَجَةَ... وَوَائِلُ بْنُ حُجْرٍ يَتَرَفَّلُ عَلى الأَقْيالِ، أَمِيرٌ أَمَّرَهُ رَسولُ اللَّهِ فَاسْمَعوا وَأَطيعوا"(الخطّابي، 1982م: 1/ 280).

ومن الشعر، قالَ الْأَعْشى(ديوان الأعشى الكبير، 2003م: 71):

جِيادُكَ فِي الصَيْفِ فِي نِعْمَةٍ تُصانُ الْجلالَ وَتُنْطى الشَعيرا

وقد يتبادر إلى الذهن، أوّلا، أنّ ما حدث بين النون والعين إبدال صوتيّ؛ فعربيّتنا تجيز الإبدال بين الأصوات، وأمثلته كثيرة من مثل: اصطبر (اصتبر)، فالتاء المستفلة صارت طاء مستعلية لمجاورتها الصاد المستعلية، ومثل: ازدهر (ازتهر)، فالتاء المهموسة صارت دالا مجهورة لمجاورتها الزاي المجهورة، وهكذا.

لكن، الصحيح، أنّ ما حدث في العين الساكنة قبل الطاء في "أنطى" ليس إبدالا صوتيّا، رغم أنّ ثمّ صفاتٍ مشتركة بين الصوتين، فهما صوتان متوسّطان (مائعان)، وإن بَعُدَ المخرج. لكن، ورد عن العرب كلمات مشابهة للفعل أنطى من حيث التجاور بين العين الساكنة والطاء، مثل: يَعْطَسُ، يَعْطَشُ، لكنّها بقيت على حالها ولم يجرِ عليها أيّ تغيير، ما جعلنا نحكم بأنّها لهجة عربيّة قديمة، إضافة إلى أنّ ثمّ روايات كثيرة تدلّ على كون هذا المظهر الصوتيّ لغات عند بعض القبائل، إضافة إلى أنّ هذه الظاهرة اللهجيّة موجودة في بعض الساميّات الأخرى كما يقول رمضان عبد التواب(عبد التوّاب، 1999م: 122).

حتّى إنّ القدماء أنفسهم فطنوا لذلك، وعدّوا "أنطى" لغة أصيلة وليست مظهرا صوتيّا لـ "أعطى"، نقل أبو حيّان في تفسيره لعبارة: "أَبْدَلَ مِنَ الْعَيْنِ نُونًا"، قوله: "فإن عنيا النّونَ فِي هَذِهِ اللُّغَةِ مَكانَ الْعَيْنِ فِي غَيْرِهَا فحسن، وإن عنيا الْبَدَلَ الصِّنَاعِيَّ فَلَيْسَ كَذَلِكَ، بَلْ كُلُّ واحِدٍ مِنَ اللُّغَتَيْنِ أَصْلٌ بِنَفْسِها لِوُجودِ تَمامِ التَّصَرُّفِ مِنْ كُلِّ واحِدَةٍ، فَلا يَقولُ: الْأَصْلُ الْعَيْنُ، ثُمَّ أُبْدِلَتِ النّونُ مِنْها"(الأندلسيّ، 1420هـ: 10/ 556).

وثمّ أمثلة كثيرة تدور في اللهجة الأردنيّة مرتبطة باللهجات القديمة، لكنّها لا تمثّل ظواهر عامّة، ولم يأت البحث إلى تفصيل القول فيها، نذكر منها:

- إدغام العين الساكنة في الحاء، مثل: محُم (معهُم)، محّا (معها)، وهي ألفاظ تشيع على ألسنة العوامّ في الأردنّ. فقد سُكِّنت العين وأدغمت في الحاء بعدها، وساعد على هذا الإدغام قرب المخرج بين الحاء والعين. نقل ابن منظور عن الفرّاء قوله: "تقول العرب: دحّا محّا، يريدون: دعها معها"(ابن منظور، 2033م، 2/ 509).
- تسهيل لام الفعل المهموز المتصل بضمير، مثل: قَريت (قرأتُ)، بَديت (بدأتُ). يقول ابن منظور: "قَالَ ابْنُ خالَوَيْه ليس أحد يَقولُ بَدِيتُ بِمَعْنى بَدَأْتُ إِلا الأَنصار، وَالنّاسُ كُلُّهُمْ بَدَيْتُ وبَدَأْتُ، لَمّا خُفِّفَتِ الْهَمْزَةُ كُسِرَتِ الدال فانقلبت الهمزة ياء، قال: وَلَيسَ هُو من بنات الياء" (ابن منظور، 2003م، 14/ 82)
- حذف اللام من حرف الجرّ (على)، مثل: عَلِكْتاب، عَلْبَلَد. فتحذف اللام تخفيفا وتحذف الألف لتشكّل مقطع مرفوض. يقول ابن عصفور: "وقد شذَّ العرب في (عَلْماءِ بَنُو فُلانٍ)، فحُذفت الألف لالتقاء الساكنين، فاجتمعت اللّامان: لام "على" مع لام التعريف. واستثقل ذلك، مع أنه قد كثر استعمالهم له في الكلام -وما كثر استعماله فهو أدعى للتخفيف ممّا ليس كذلك- فحُذفت لام "على" تخفيفًا، لمّا تعذَّر التخفيف بالإدغام" (ابن عصفور، 1996م، 416).

وثمّ دراسات تتحدّث عن كثير من هذه الأمثلة، مثل:

الغرايبة، علاء الدين أحمد، ظواهر صوتية في لهجة عجلون: دراسة وصفية تاريخية، دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعيّة، م35، ع1، 2008.

أبو نواس عمر، والثوابية هيثم، الإبدال الصوتي في لهجة ناعور: دراسة تأصيلية في ضوءاللهجات العربية القديمة، مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب، م15ن عدد1، 2018م.

الخاتمة

المكتبة العربيّة فقيرة في المؤلّفات المختصّة بدراسة اللهجات، خصوصا الحديثة، حتى إنّنا نرى كبرى الجامعات العربيّة تستثني موضوع اللهجات من خططها الدراسيّة، ولعلّ تيّار المحافظين الذي يَعُدّ كلّ خروج عن الفصيحة لحنًا، لا يزال يرى العناية باللهجات إثما كبيرا وخروجا عن المعياريّة. على أنّنا نحمَد لأنفسنا أنّنا من أصحاب هذا المنهج المحافظ، لكنّ دعوتنا هنا تقتصر على الوصف والتفسير والرصد، لا على الدعوة إلى العاميّة أو إلى تفصيحها. وها نحن الآن نَحار في نطق بعض أصواتنا العربيّة كما كانت في بيئاتها اللغويّة قديما، ولو وُصفت لنا وصفا دقيقا، ودلّ عليها المحفوظ من لهجاتها، لتبيّنا الآن حالها القديم، وأحسنّا وصفها ولخرجنا من فوضى الخلاف في طريقة نطق الطاء المجهورة، وتبينّا ملامح الضاد القديمة، ولعرفنا كيف كانت تنطق القاف المجهورة، ولحلّلْنا غيرها من المشكلات القائمة حتى اللحظة عند علماء الأصوات. وهذه دعوة لاستثمار الإمكانات الحديثة في عصرنا، لحفظ لهجاتنا، وتسجيل كلّ مظاهرها النطقيّة من خلال الأجهزة الصوتيّة المخصّصة لذلك، لملاحظة تطوّرها، وَلِيُحْسِنَ وَصفَها من يخلُفُنا من الدارسين، وليدركوا مسيرتها التاريخيّة إن وُجِدتْ.

ودراسة اللهجات تبيّن لنا الصور الكلاميّة العديدة لألفاظنا وأصواتنا، وهي التي جعلت لغويّينا، منذ بدء الاشتغال بدراسة علوم اللغة، وحتى يومنا، يدرسون لغتنا وكلّ ما اتّصل بها من قريب أو بعيد.

وقد ساهمت هذه اللهجات بطريقة أو بأخرى في وجود المدارس النحويّة المختلفة؛ فلولا وجودها وإيمان النحاة بأنّها قدر لا مفرّ منه، لما تجاوزنا أبا عمرو بن العلاء، وابن أبي إسحق الحضرميّ، وعيسى بن عمر، وأشياخ زمنهم، ولأقفلنا باب النحو العربيّ بكتاب سيبويه، لكنّنا نجد مدارس أخرى جاءت بعد الرعيل الأوّل الذين أقاموا صرح النحو، وما ذاك إلا ليواكبوا ذاك التطوّر البطيء الذي يصيب اللغة على امتداد الزمن.

وشئنا أم أبينا، ليس لنا أن ننكر حقيقة وجود لهجات عاميّة متفرّعة عن اللغة المشتركة، ويظهر دور الباحثين بعدُ في محاولات التقريب بينهما.

ودراسة اللهجات تمدّ جسور التواصل بين عاميّاتنا ولغتنا الفصيحة من خلال الارتقاء بالعاميّات إلى المستوى الأدنى من الفصيح، لا لتغييب أيّ مستوى للفصيحة؛ فهي باقية ما بقي القرآن، إنّما نتخوّف من أن تنغلق العاميّات على نفسها، ما يبعدها عن الفصيحة. فالناطقون بالعربيّة يبتعدون عن الفصيحة في أداءاتهم النطقيّة الحياتيّة، ولا يد لأحد على إيقاف هذا التطوّر.

على أنّنا لا نلغي وجود عوامل متعدّدة تسهم في تقريب العاميّات من الفصيحة، ونلفت المجامع اللغويّة والمؤسّسات المعرفيّة إلى استثمارها والدعوة إلى العناية بها، ولعل أبرز عاملين يذيبان هذه الفوارق، التعليم ووسائل الإعلام؛ ففي التعليم ليس لنا أن ننقل المعارف إلى مجتمع واسع من خلال لهجة ضيّقة يختصّ بها قطرٌ دون آخر؛ لأنّنا سنضيف إلى جانب التعلّم جانبا آخر، هو فكّ شيفرات اللهجة بوصفها أداة ناقلة للمعرفة، والحال

نفسه ملازم لوسائل الإعلام، مكتوبة كانت أو مسموعة.

نتائج البحث:

خلُص البحث المعنون بـ "اللهجات الحديثة، امتداد للقديمة، أم تطوّر عن الفصيحة، دراسة لغويّة في اللهجة الأردنيّة"، إلى عدد من النتائج، من أبرزها:

1. أنّ اللهجات أسبق من اللغة، من حيث التصوّر العقليّ، ولهجات العربيّة، قبل الفصيحة، كانت مستويات للغة الساميّة قبل العربيّة، وقد كانت هذه اللهجات آخذة في التطوّر الطبيعيّ، لكنّ نزول القرآن ألجأ العرب إلى تقعيد اللغة، لحفظ القرآن، وليسهل فهمه على الداخلين الجدد، من غير العرب، في الإسلام.
2. أنّ هذه المظاهر اللهجيّة التي نجدها في اللهجة الأردنيّة وأمثالها قد انحدرت من لهجات قديمة متعدّدة لا من لهجة واحدة، ما يشير إلى أنّ الوافدين إلى بلاد الشام إبّان الفتوحات الإسلاميّة، وبعدها، قد جلبوا لهجاتهم معهم، وصارت أدوات تواصلهم، ولا يخفى أنّ الزمن وعوامل أخرى قد طمست بعضها وأحيت أخرى.
3. ليس لنا أن نحصر أيّ مظهر لهجيّ في بيئة جغرافيّة محدّدة؛ فالأرض العربيّة شهدت هجرات كثيرة وفتوحات عديدة، وأصحاب هذه اللهجات توزّعوا في غير مكان من الأرض.
4. هذه الظواهر اللهجيّة تمثّل مستويات لغويّة موجودة جنبا إلى جنب مع المستوى الفصيح ذي الرتبة العالية في منطوق العرب، لا نستطيع تبيّن السابق منها من اللاحق ليسهل علينا تعيين الأصل من الفرع أو المتطوّر من الأصيل، فمن غير المعقول أن تغطّي لغة ذات مستوى واحد مساحة جغرافية واسعة، إنّما تغطّيها مجموعة من اللهجات لهذه اللغة، والفصيحة التي نعرف واحدة من هذه اللهجات، وقد برزت عن غيرها لتفوّق أصحابها دينيا واقتصاديا وسياسيا، خصوصا أن القرآن نزل بها.
5. تمثّل لهجة قريش مستوى لهجيّا من لهجات العرب، وإن كانت قد ائتلفت كثيرا من الأنماط اللغويّة العالية. ونزول القرآن بلهجة قريش جعل العرب يقدّمونها ويقعّدون اللغة على وَفقها.

المصادر والمراجع

ابن الأثير، م. (1979). *النهاية في غريب الحديث والأثر*. بيروت: المكتبة العلميّة.

ابن جني، أ. (1969). *المحتسب*. مصر: وزارة الأوقاف.

ابن جنّي، أ. (د.ت). *الخصائص*. (ط4). الهيئة المصرية العامة للكتاب.

ابن جنّي، أ. (د.ت). *سر صناعة الإعراب*. المكتبة التوفيقيّة.

ابن دريد، أ. (1987). *جمهرة اللغة*. (ط1). بيروت: دار العلم للملايين.

ابن عصفور، أ. (1996). *الممتع في التصريف*. (ط1). مكتبة لبنان.

ابن فارس، أ. (1997). *الصاحبي في فقه اللغة العربيّة*. (ط1).

ابن منظور، ج. (2003). *لسان العرب*. (ط3). بيروت: دار الكتب العلميّة.

ابن هشام، ع. (1985). *مغني اللبيب عن كتب الأعاريب*. (ط6). دمشق: دار الفكر.

الأزهري، أ. (2001). *تهذيب اللغة*. (ط1). بيروت: دار إحياء التراث.

الأندلسي، أ. (1999). *البحر المحيط*. بيروت: دار الفكر.

أنيس، إ. (1965). *في اللهجات العربيّة*. (ط3). القاهرة: مكتبة الأنجلو.

البخاري، أ. (د.ت). *صحيح البخاري*. مصر: المكتبة الأميريّة.

بروكلمان، ك. (د.ت). *فقه اللغات السامية*. جامعة الرياض.

البغدادي، ع. (1997). *خزانة الأدب*. (ط4). القاهرة: مكتبة الخانجي.

الثعالبي، أ. (2002). *فقه اللغة وسر العربيّة*. (ط1). إحياء التراث العربي.

ثعلب، أ. (1960). *مجالس ثعلب*. مصر: دار المعارف.

حسّان، ت. (2006). *اللغة العربية مبناها ومعناها*. (ط5). عالم الكتب.

الخطابي، أ. (1982). *غريب الحديث*. دمشق: دار الفكر.

دي سوسير، ف. (1985). *علم اللغة*. بغداد: دار آفاق.

الرازي، ف. (1999). *مفاتيح الغيب*. (ط3). بيروت: دار إحياء التراث العربي.
الرقيات، ع. (د.ت). *ديوان عبيد الله بن قيس الرقيّات*. بيروت: دار صادر.
الزبيدي، أ. (د.ت). *طبقات النحويّين واللغويّين*. (ط2). دار المعارف.
الزبيدي، م. (2001). *تاج العروس من جواهر القاموس*. الكويت: وزارة الإرشاد والأنباء.
الزجاجي، أ. (1986). *الإيضاح في علل النحو*. (ط5). بيروت: دار النفائس.
السامرائيّ، إ. (1981). *التطوّر اللغويّ التاريخيّ*. (ط2). بيروت: دار الأندلس.
سلمى، ز. (د.ت). *ديوان زهير بن أبي سلمى*. بيروت: دار الأرقم.
سيبويه، أ. (1988). *الكتاب*. (ط3). القاهرة: مكتبة الخانجي.
السيوطي، ج. (1998). *المزهر في علوم اللغة وأنواعها*. (ط1). بيروت: دار الكتب العلميّة.
الصالح، ص. (1960). *دراسات في فقه اللغة*. (ط1). دار العلم للملايين.
الصلت، أ. (1934). *ديوان أميّة بن أبي الصّلت*. (ط1). بيروت: المكتبة الوطنيّة.
عبد التوّاب، ر. (1982). *بحوث ومقالات في اللغة*. (ط1). القاهرة: مكتبة الخانجي.
عبد التوّاب، ر. (1999). *فصول في فقه اللغة العربيّة*. (ط6). القاهرة: مكتبة الخانجي.
فندريس، ج. (1950). *اللغة*. مكتبة الأنجلو المصرية.
القرطبي، أ. (1964). *الجامع لأحكام القرآن*. (ط2). القاهرة: دار الكتب المصرية.
قيس، م. (2003). *ديوان الأعشى الكبير*. (ط3). بيروت: دار الكتب العلمية.
المبرد، أ. (1997). *الكامل في اللغة والأدب*. (ط3). القاهرة: دار الفكر العربي.
الملوح، ق. (1999). *ديوان قيس من الملوّح*. (ط1). بيروت: دار الكتب العلمية.
الهذلي، أ. (2003). *ديوان أبي ذؤيب الهذلي*. (ط1). بيروت: دار صادر.

References

Abdel-Tawab, R. (1982). *Research and Articles in the Language*. (1st ed.). Cairo: Al-Khanji Library.
Abdel-Tawab, R. (1999). *Chapters in Arabic Philology*. (6th ed.). Cairo: Al-Khanji Library.
Al-Andalusi, A. (1999). *Al-Bahru Al-Muhiitu*. Beirut: Dar Al-Fikr.
Al-Azhari, A. (2001). *Tahgheebu allughati*. (1st ed.). Beirut: Dar Ihaia Al-Tutrath.
Al-Baghdadi, Abd. (1997). *Khazaanatu aladabi*. (4th ed.). Cairo: Al-Khanji Library.
Al-Bukhari, A. (n.d). *Sahihu Al-Bukharii*. Egypt: Al-Sultaniyah, the Amiri Library.
Al-Hudhalii, A. (2003). *Diwaan Abii thu'aybin Al-Hudhalii*. (1st ed.). Beirut: Dar Sader.
Al-Kabiir, A. (2003). *Diwaan Al-A'shaa Al-Kabiir.* Beirut: Dar Al-Kutub al-Ilmiyya.
Al-Khattabi, A. (1982). *Ghareebu alhadeethi*. Damascus: Dar Al-Fikr.
Al-Malawwahu, O. (1999). *Diwan Qaysu ibnu Al-Malawwahu*. (1st ed.). Beirut: Dar Al-Kutub Al-Ilmia.
Al-Mubarrad, A. (1997). Al-Kaamilu fee allughati wal'adabi. (3rd ed.). Cairo: Dar Al-Fikr Al-Arabi.
Al-Qurtubi, A. (1964). *Aljami'u li'ahkami alquraani*. (2nd ed.). Cairo: Dar Al-Kutub Al-Masryah.
Al-Razi, F. (1999). *Mafaatiihu alghaybi*. (3rd ed.). Beirut: Dar Ihaia Al-Tutrath Al Arabi.
Al-Ruqayyati, O. (n.d). *Diwaan Obaydullahi ibnu Qaysin Al-Ruqayyati*. Beirut: Dar Sader .
Al-Saleh, S. (1960). *Studies in Philology*. (1st ed.). Dar Al-Ilm for Millions.
Al-Salt, U. (1934). *Diwaan Umayyah Ibni Abii Al-Salt*. (1st ed.). Beirut: National Library.
Al-Samarrai, I. (1981). *The Historical Linguistic Development*. (2nd ed.). Beirut: Dar Al-Andalus.
Al-Suyuti, J. (1998). *Al-muzhirur*. Beirut: Dar Al-Kutub Al-Ilmiyya.
Al-Tha'labi, Abu. (2002). *Fiqhu allughati wasirru alarabiyyati*. (1st ed.). Ihaia Al-Tutrath Al-Arabi.
Al-Zajazi, A. (1986). *Aliydaahu fee ilali alnahwi*. (5th ed.). Beirut: Dar Al-Nafais.
Al-Zubaidi, A. (n.d). *Tabaqatu alnahwiyyiin wallughawiyyiina*. (2nd ed.). Dar Al-Maaref.
Al-Zubaidi, M. (2001). *Taaju al'aruusi*. Kuwait: Ministry of Guidance and News.
Anis, I. (1965). *Fee allahajati alarabiyyati*. (3rd ed.). Cairo: Anglo Library.

Brockelmann, K. (n.d). *Fiqhu allughati alsamiyyati*. University of Riyadh.

De Saussure, F. (1985). *Linguistics*. Baghdad: Dar Afaq.

Fenderes, J. (1950). *The Language*. Anglo Egyptian Library.

Hassan, T. (2006). *The Arabic language, its Structure and Meaning*. (5th ed.). The World of Books.

Ibn Al-Atheer, M. (1979). *Alnihaayatu fee ghareebi alhadeethi walathari*. Beirut: The Scientific Library.

Ibn Duraid, A. (1987). *Jamharatu allughati*. (1st ed.). Beirut: Dar Al-Ilm for Millions.

Ibn Faris, A. (1997). *Al-Saahibii*. (1st ed.).

Ibn Hisham, Abd. (1985). *Mughnii Al-Laabiibi*. (6th ed.). Damascus: Dar Al-Fikr.

Ibn Jani, A. (1969). *Al-Muhtasib*. Egypt: Ministry of Endowments.

Ibn Jinni, A. (n.d). *Alkhasaaisu*. (4th ed.). The General Egyptian Book Organization.

Ibn Jinni, A. (n.d). *Sirru sinaati ali'raabi*. The Library of Al-Tawfiqiyyah.

Ibn Manzoor, J. (2003). *Lisaanu alarabi*. (3rd ed.). Beirut: Dar Al-Kutub Al-Ilmiyya.

Ibn Osfoor, A. (1996). *Almomti'u fee altasreefe*.

Sibawayh, A. (1988). *Alkitaabu*. (3rd ed.). Cairo: Al-Khanji Library.

Sulmaa, Z. (n.d). *Diwaan Zuhayri ibni Abii sulmaa*. Beirut: Dar Al-Arqam.

Thalab, Abu. (1960). *Majalisu Thalabin*. Egypt: Dar Al- Maaref, .